

اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع الخلفاء
الراشدين

[فصل: ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: { عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة } خرج الترمذي برقم (2676) في العلم. وأبو داود برقم (4607) في السنة. وابن ماجه رقم (42) في المقدمة. وأحمد في المسند (4 / 126، 127). والحاكم في المستدرک (1 / 95، 96) وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح ووافقه الذهبي. . ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد.] (النشر)* قوله: (فصل: ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا...): هذا الفصل في الاتباع وإدخاله في العقيدة بمناسبة أن الذي يصدق إنسانا يتبعه؛ فالذين يصدقون الرسول صلى الله عليه وسلم يتبعونه، ومن اتبعه في شيء دون شيء دل على ضعف تصديقه، ومن قبل بعضا دون بعض دل على عدم تطبيقه، وعلى كذبه في شهادته له بالرسالة. فلما كان أهل السنة صدقوا بأن الله هو ربهم وإلههم ومعبودهم، وصدقوا بأنه الذي كلفهم وأمرهم ونهاهم، وصدقوا بأنه الذي تعبدهم بهذه الشريعة التي فيها هذه الواجبات وهذه المحرمات، وصدقوا أيضا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمنوا به وبرسالته، واعتقدوا صحة ما جاء به، وبأنه مرسل من ربه، واعتقدوا أن شريعته هي شرع الله، وأنه ما جاء بشيء من نفسه إنما هو مبلغ ومبين. فلما اعتقدوا ذلك كله، عملوا به وقيوموا واتبعوه، فاتبعهم للقرآن باعتبار اتباعا للنبي صلى الله عليه وسلم، واتباعا لله تعالى. وقد أمرهم الله باتباع القرآن في آيات كثيرة، قال الله تعالى: { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنًا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } [الزمر: 55]. وكذلك أمرهم باتباع النبي صلى الله عليه وسلم ورثب على اتباعه الأجر، ومن ذلك قوله تعالى: { قَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف: 158] فجعل اتباعه سببا للاهتداء. قال تعالى: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [آل عمران: 31] فجعل في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فائدتين. حصولك على محبة الله، وحصولك على مغفرة الذنوب { يُحِبِّكَ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } فمن طريقة أهل السنة ومن عقيدتهم: اتباع ما جاء عن الله تعالى في كتابه الذي أنزله وحيا على محمد صلى الله عليه وسلم، فبعد أن اعتقدوا أنه وحى من الله، وأنه كلام الله الذي وجهه إلى عباده وضُمَّته شريعته، اعتقدوا بعد ذلك أنه يلزمهم السير على نهجه، وأنه يلزمهم اتباعه وتطبيق ما فيه. كذلك حقيقة الاتباع ليست مجرد انتساب، فكثير من الناس يقال له: لا تتبع ما جاءك من الله فيقول: بلى أنا أتبعه هل رأيتني قد خالفته؟ فيقال له ألا تتبع النبي صلى الله عليه وسلم وتطبق ما جاء به؟ فيقول: بلى، اليس قد أتبعته، هل رأيتني خالفته؟ نقول: حقيقة الاتباع هي تطبيق كل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم تطبيقا دقيقا، بحيث لا يتطرق إلا بترك سنة إلا ويعمل بها، ولا يترك أمرا إلا ويمتثلها، ولا نهيا إلا ويتباعد عنه وينزجر. وقدم امر الله تعالى بتقبل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والانتفاء له، فهو المبلغ عن الله تعالى، ولا بأس أن تذكر أنواعا من الأدلة التي وردت بذلك: فمنها: الأمر بالناسي به؛ قال تعالى: { لَعَدَّ كَارَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوءَ حَسْبَتَهُ } [الأحزاب: 21] وحقيقة الناسي هو تقليده، وفعل ما يفعله، فإذا عرفنا أن هذا الفعل فعله فإننا نفعله ناسيا به واستنانا واتباعا له واعتقادا أنه طاعة لله. ومنها: الأمر بالطاعة، وقد ورد هذا كثيرا في القرآن في نحو أربعين آية فيها الأمر بطاعة النبي صلى الله عليه وسلم، فآية يعطفها على طاعة الله كقوله تعالى: { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } [المائدة: 92] وآية تارة تكون مستقلة كقوله: { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النور: 56] ويرتب عليها الفوائد كما في هذه الآية حيث رتب على طاعة النبي الرحمة. وأنت تعرف أن الطاعة تتمثل في امتثال الأوامر وترك الزواجر، فالذي تأتبه الإرشادات من النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن يأخذ منها ما يناسب زمانه ويترك منها ما لا يناسب، فإنه ما أطاعه حق الطاعة. وإذا سئل هذا المفرط عن سبب تفرقه لاحتج بأن أهل هذا الزمان لا يناسبهم كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الزمان قد تغير والناس قد تطوروا وما أشبه ذلك، ونحن نعيش مع الناس، فينبغي لنا أن نسايرهم حتى لا نفرقوا منا على حد زعمه- فإذا تمسكنا بكل ما جاء به الكتاب والسنة، هجرنا الناس وقلوبنا وتنقصوا. فالواجب على هذا وأمثاله أن يطيع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في كل ما أمرا به، وأن يتبني عن كل ما نهاه عنه، وإن حصل له ما حصل من الإبعاد والهجران، وله في نبي الله صلى الله عليه وسلم وصحابته أسوة حسنة، فقد فارقوا الأهل والأوطان، وتركوا أموالهم وديارهم، وجادوا بأنفسهم طاعة لله عز وجل وابتغاء مرضاته. ومن الأدلة أيضا: التحذير الشديد من المخالفة له وذلك في مثل قوله: { فَيَحْذَرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النور: 63] قال الإمام أحمد رحمه الله: أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزرع فيهلك، يعني إذا رد بعض قول النبي صلى الله عليه وسلم، وقدم عليه عادات الناس وسيرتهم وألوفاتهم، وقع في قلبه شيء من الزرع، وهو بعض شيء من السنة، وتضنى أنها لم ترد، فيكون بذلك ماقتا للنبي صلى الله عليه وسلم منتقدا له، كأنه يتمنى أنه لم يأمر بهذا الأمر، أو لم يحرم هذا المنهي عنه، فيكون هذا سببا لزرع قلبه، مما يوجب له الهلاك أو مقاربة الهلاك. ومنها أيضا: قوله تعالى: { وَمَا أَتَاكُمْ مِنَ الرَّسُولِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } [الحشر: 7] وهذا يوجب للإنسان أن يمتثل للإرشادات ويمتنع عن المنهيات، وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم الثواب والعقاب على هذه المتابعة؛ فقال عليه الصلاة والسلام: { كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبى } قالوا: "ومن أبى يا رسول الله؟" كأنهم استغربوا: هل هناك أحد يقال له: ادخل الجنة فيأبى!! ولكنه صلى الله عليه وسلم في معنى ذلك بقوله: "من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى" أخرجه البخاري برقم (7280) في الاعتصام، باب: "الاعتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم". فجعل طاعته وعصيانته سببا إما للثواب وإما للعقاب. فهذه أنواع من الأدلة التي يتبين بها وجوب التحاكم إلى شرع الله سبحانه وتعالى واتباع ما جاء به نبيه صلى الله عليه وسلم والرضى بذلك والتسليم، وعدم وجود شيء من الحرج في النفس لشيء من الأحكام كما جاء ذلك في قوله تعالى: { فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُخَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتُمْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: 65] فتفى عنهم الإيمان إلا بهذه الخصال: وهي أن يُخَكِّمُوهُ: أي يحلوه حكما بينهم، وإذا جاءهم حكمه رضوا به في كل ما شجر بينهم، وكل ما تنازعوا واختلفوا فيه، يرجعون به إلى حكم النبي صلى الله عليه وسلم. ثم إذا كان في ذلك الحكم شيء من مخالفة النفس أو الهوى، أو فيه شيء من مخالفة العادات المألوفة بين الناس فإنهم لا يغيضون ذلك الحكم ولا يردونه، فيقولون مثلا: لا ليته ما أمرنا بإعفاء اللحي، أو لا ليته ما أمرنا بترك الفواحش والزنى، أو لا ليته ما أمرنا بترك الربا، أو لا ليته تركنا أحرارا في أموالنا نتصرف فيها وتعامل بها كيف نشاء، بل إنهم يتقبلون كل ما جاء به ولا يغيضون شيئا من سنته. فإذا قبلوا بعضا دون بعض، أو قبلوا ما يناسبهم دون لا يناسبهم، أو فعلوا شيئا من المخالفات ولو مع اعتقاد التحريم، كان بشرىوا الخمر تهاوتا بعقوبة الله المترتبة عليها مع اعتقادهم أنها محرمة، فإن هذا من التهاون بعقوبة الله والاستهانة بخُرْماته، فيكون ذلك تنقضا لدين الله. فالحاصل أن من عقيدة أهل السنة: اتباع النبي صلى الله عليه وسلم واتباع كتاب الله، واتباع طريقته التي سار عليها أقوالا وأفعالا. ومن عقيدة أهل السنة أيضا اتباع سيرة الخلفاء الراشدين عملا بوصية النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح حيث قال: { عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة } خرَّجه الترمذي برقم (2676) في العلم. وأبو داود برقم (4607) في السنة. وابن ماجه رقم (42) في المقدمة. وأحمد في المسند (4 / 126، 127). والحاكم في المستدرک (1 / 95، 96) وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح ووافقه الذهبي. ولا شك أن الخلفاء الراشدين الذين هم الخلفاء الأربعة ما قالوا شيئا من قتل أنفسهم، إلا ما للاجتهاد فيه مجال، فإنهم يجتهدون إذا لم يعلموا الحكم فيما وقع لهم، ولما كانوا قد صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم والصحة التامة، وعرفوا نهجه وسيرته، وحفظوا عنه سنته، وعرفوا أهداف شريعته ومراميتها، وصَّى النبي صلى الله عليه وسلم واتباعهم؛ لأنه عرف أنهم لا يميلون، ولا يؤثرون عليها باطلا، فهذا هو السبب في كونه وصَّى باتباعهم، وبالسير على سنتهم، وسماهم خلفاء؛ لأنهم خلفوه أي جاؤوا بعده، وقد خلف بعضهم بعضا أيضا. فأبو بكر رضي الله عنه خلف النبي صلى الله عليه وسلم في الولاية وإقامة الحدود وجمع الكلمة، وفي تدبير الشئون وفي تقرير العقوبات على مستحقيها وفي إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد وما أشبهها. ثم جاء عمر رضي الله عنه خليفة لأبي بكر فسار بسيرته ونهج نهجه، وجَهَّز الجيوش، وفتحت بتدبيره البلاد، وانتشر الإسلام، وكذلك أيضا بلغ ما علمه، وحكم بين الناس، وأفتى وعلم وفهم، وأوقف الناس على الأحكام، وعلى الحكم والمصالح. وهكذا بقية الخلفاء، فلما كانوا كذلك كانت سنتهم وسيرتهم أولى بأن تتبع؛ ذلك لأنهم كانوا على نهج النبي صلى الله عليه وسلم، وسماهم راشدين اشتقاقاً من الرشد، والرشد ضد الغي، قال تعالى: { قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [البقرة: 256] فالرشد هو طريق الفلاح والخير والصالح، وهم راشدون؛ أرشد الله بهم الأمة، وسماهم مهديين؛ لأن الله قذف في قلوبهم الهدى، هداهم وهدى بهم وسددهم، فهذه شهادة النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالخير، فلأجل ذلك قال: { عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي } أخرجه الترمذي برقم (2676) في العلم. وأبو داود برقم (4657) في السنة. وابن ماجه برقم (42) في المقدمة. وأحمد في المسند (4 / 126، 127). وقال الترمذي: حسن صحيح. . والسنة: الطريقة التي يسار عليها بالأعمال لا بالأقدام، فسنتهم نهجهم وأعمالهم التي عملوها وأقوالهم التي قالوها، فأمر باتباعهم في ذلك؛ لأنهم كانوا على النهج القويم. وأمر بالتمسك بالسنة فقال: "تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ" والعص معناه قوة الإمساك، وليس هو العص الحقيقي بالأسنان، إنما المراد: قوة العمل بها، كأنه يقول: لا بد وأن تتالكم فتن، ولا بد وأن تحبسوا، وتضربوا إذا تمسكتم وصبرتم واتبعتم السنة، فقد يستهزأ بكم، وقد يأتكم من ينتقصكم، وقد يمقتكم كثير من الناس، ويرميكم برجعية أو بجمود أو بترمت وتشدد وتعصب. فلا يزيدكم ذلك إلا تمسكا، ولا يزيدكم ذلك إلا اتباعا لهذه السنة وتمسكا بها، تملوا بمن بعض على الشيء بأضراره؛ فالنواجذ هي أقاصي الأسنان، فقد مثل شدة التمسك بالسنة كالذي بعض على الشيء بأسنانه كلها، فإن ذلك أعلى قوته، أي تمسكوا بها ولو حُستتم، ولو ضُرِبت وأوذبت، ولو نالك ما نالك، فلا يصدكم ذلك عن السنة وهذه السيرة، واحذروا من المحدثات أو البدع. فالحاصل أنه عليه الصلاة والسلام أمرنا باتباعه صلى الله عليه وسلم واتباع أصحابه والتمسك بسنته وسنة خلفائه الراشدين المهديين من بعده، وحذرتنا من البدع والمخالفات، وأهل السنة يعرفون أن البدعة هي المحدثه في الدين فيبتعدون عنها، ويعرفون أن السنة هي طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته فيتمسكون بها ويؤثرونها، ويعرفون هدي النبي صلى الله عليه وسلم فيسيرون على نهجه، ويتبعون وصيته في خطبته، فقد كان يخطب في كل جمعة بقوله: { إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم } أخرجه مسلم برقم (867) في الجمعة، باب: "تخفيف الصلاة والخطبة". عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه. هكذا كان عليه الصلاة والسلام يقول. فالهدي معناه: السمات والدل والعمل، فأحسن وأفضل الهدي والأعمال ما عمله النبي صلى الله عليه وسلم، وأصدق الحديث وخير الكلام هو كلام الله الذي بلغه رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. فأهل السنة لما أنهم قدموا هديه عليه الصلاة والسلام على كل هدي، وقدموا سيرته ونهجه، وتمسكوا بكتاب ربه، سمو أهل السنة، أي إنهم أهل سنة النبي صلى الله عليه وسلم التي أوصاهم بها، وسموا كذلك أهل الجماعة؛ لأنهم المجتمعون على الحق، ولو قبلوا في بعض الأزمان فلا يضرهم، ولو كثر أعداؤهم ومخالفوهم فلا يضرهم. فالحق حق ولو قل أهله، والباطل باطل ولو كثر أهله، فليس العبرة بكثرة الأتباع ولا بكثرة الناس الذين على طريقه، بل العبرة بنفس تلك الطريقة؛ صحتها أم عدم صحتها. فانت إذا أردت أن تسير أحوال الناس، اسبر قبل ذلك أعمالهم، وطبقها على شرع الله المنزل ووجهه المحفوظ، فما وافق هذا الوحي فإنه هو الحق، فاقبله وتقبله ولو قل أهله، وما خالفه فرده على من قاله.